مركزية القضية الفلسطينية
في الخطاب الإسلامي الحديث

د / محمد زرمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة ــ الجزائر

مقدمة:

لا نهدف من وراء هذه الورقة إلى استعراض تاريخ القضية الفلسطينية ، وتسجيل أحداثها مما هو معروف ومتوفر في كثير من الكتابات والبحوث ، ولكننا نسعى إلى استقراء أبجديات الخطاب الإسلامي المعاصر لمعرفة موقفه من هذه القضية والوقوف عند أبرز محطاته الفكرية التي تشخص فهمه للقضية وتشرح تصوراته لها وتحليله لأحداثها ورؤيته لمستقبلها في ظل التطورات التي تتسارع على الساحة الدولية، وتبين في الوقت ذاته بعض مظاهر الإخفاق والخلل في أطروحاته.

لقد واكب الخطاب الإسلامي القضية الفلسطينية منذ ظهورها في بدايات القرن العشرين وتفاعل معها تفاعلا حيا، وتجاوب مع كل أحداثها وتطوراتها، واهتز لمآسيها وآلامها، وسجل موقفه الثابت المستند إلى المرجعية الإسلامية والرؤية القرآنية منها ، وظل مصرا عليه على الرغم مما شهدته القضية من مد وجزر، وما تتابع عليها من اتجاهات إيديولوجية وما تقاذفتها من تيارات فكرية متباينة .

وظلت هذه القضية تحتل مكانة مركزية متميزة في الخطاب الإسلامي الذي عالج حيثياتها من زوايا عديدة تعكس كلها أصالة الموقف الإسلامي وتؤكد ثباته تجاهها. ومن بين الجوانب الأساسية التي ركز عليها في مقارباته:

أولا : قداسة القضية :

إن الإيمان الصادق العميق بقدسية القضية الفلسطينية وارتباطها الوثيق بالعقيدة الإسلامية مبثوث في ثنايا الخطاب الإسلامي المعاصر بحيث يشكل إجماعا عاما تلتقي عنده كل الآراء والمواقف . ففلسطين ــ في أدبيات هذا الخطاب ــ أرض طاهرة باركها الله بما شهدت من نزول الرسالات وما وطئتها من أقدام الأنبياء على مر العصور والأزمان . وهي

أولى القبلتين حيث ظل المسلمون يصلون إليها لمدة ستة عشر شهرا قبل أن ينزل الحكم بالتوجه نحو المسجد الحرام ، وهي أيضا مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها المسجد الأقصى الذي عرج منه النبي الكريم إلى السماوات العلى : { سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير }[1] ، والذي عده ثالث المساجد مكانة في الإسلام : { لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى }[2] ، ورغب الرسول عليه الصلاة والسلام في زيارته والصلاة فيه : { عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال : " أرض المنشر والمحشر . ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه " . قالت : أرأيت من لم يطق أن يتحول إليه أو يأتيه . قال : فليهد إليه زيتا يسرج فيه ، فإن من أهدى له كمن صلى فيه }[3] .

و في المسجد الأقصى جمع الله الأنبياء ليلة الإسراء وأمهم محمد عليه الصلاة والسلام ، ورأى المسلمون في ذلك دلالة على استمرار رسالة التوحيد التي جاء بها الأنبياء ، وعلى انتقال ميراث النبوة والإمامة وأعباء تبليغ رسالة السماء إلى الأمة الإسلامية . وقد تولت جيوش الفتح الإسلامي تحرير فلسطين من الطغيان الروماني ، وتركها عمر بن الخطاب أمانة في أيدي المسلمين الذين خصهم الله بالدين الخاتم والكتاب المهيمن ليحفظوا لها قدسيتها وينشروا فيها السلام بين جميع الأديان التي تهفو أفئدة أهلها إليها لما حوت بين جنباتها من المقدسات .

من أجل ذلك كله ارتبطت فلسطين في الخطاب الإسلامي المعاصر بالحرمين الشريفين تماثلهما في قدسيتهما وتهيب بالمسلمين ألا يغفلوا عن هذه القطعة العزيزة من أرضهم ، يقول ابن باديس : " رحاب القدس الشريف مثل رحاب مكة والمدينة وقد قال الله في المسجد الأقصى في سورة الإسراء { الذي باركنا حوله } ليعرفنا بفضل تلك الرحاب . فكل ما

---

[1] الإسراء ، 1

[2] رواه مسلم . كتاب الحج . رقم 511

[3] رواه أحمد . الفتح الرباني . ج 23 . ص 393 . رقم 660

هو واقع بها كأنه واقع برحاب المسجد الحرام ومسجد طيبة "[4] ، وقد وصفها الإمام حسن البنا بأنها : " قلب أوطاننا وفلذة كبد أرضنا ، وخلاصة رأسمالنا وحجر الزاوية في جامعتنا ووحدتنا . عليها يتوقف عز الإسلام أو خذلانه "[5] .

و ناجاها الإبراهيمي مناجاة رقيقة فقال : " يا فلسطين ! إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء والتراب ، والمآرب التي يقضيها الشباب ، فإن هوى المسلم لك أن فيك أولى القبلتين ، وأن فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، وأنك كنت نهاية المرحلة الأرضية ، وبداية المرحلة السماوية ، ومن تلك الرحلة الواصلة بين السماء والأرض صعودا ، بعد رحلة آدم الواصلة بينهما هبوطا ، وإليك ... إليك ترامت همم الفاتحين ، وترامت الأينق الذلل بالفاتحين ، تحمل الهدى والسلام وشرائع الإسلام ، وتنقل النبوة العامة إلى أرض النبوات الخاصة ، وثمار الوحي الجديد ، إلى منابت الوحي القديم "[6] .

ثانيا : كشف أبعاد المؤامرة الصهيونية على فلسطين والعالم الإسلامي :

يؤكد الخطاب الإسلامي أن فلسطين قد تعرضت لمؤامرة يهودية صهيونية خطيرة نسجت خيوطها بإحكام ، وتم الإعداد لها منذ ومن طويل ووضعت قيد التنفيذ مستغلة حالة الضعف العام الذي انتاب العالم الإسلامي . ولدى المفكرين المسلمين قناعة تامة بأن هذه المؤامرة لن تتوقف عند حدود فلسطين لأنها قامت على أساس التفسير التوراتي للتاريخ الإنساني ، واستنادا إلى الميثاق الإلهي مع الشعب اليهودي ، وما يتحكم في هذه الاعتقادات من نزعة عنصرية استكبارية حاقدة يطغى عليها الشعور بالتفوق والتميز واحتقار الأمم الأخرى الذي تغذيه نصوص التوراة .

و قد جاءت هذه القناعة من معرفة المسلمين العميقة بتاريخ اليهود الطويل معهم وما طبعه من الغدر والخيانة والعدوان والتآمر ، وبما قص عليهم القرآن من أخبارهم التي احتلت مساحة تعبيرية استغرقت سورا

---

[4] ابن باديس ، عبد الحميد ." فلسطين الشهيدة " . الشهاب . ج6 . مج 14 . جمادى الثانية 1357 هـ . أوت 1938 م

[5]

[6] الإبراهيمي ، محمد البشير . عيون البصائر . ش. و. ن. ت . الجزائر . د. ت. ص 491

طويلة فيه . وهذا ما جعلهم يؤكدون في كل مناسبة أن اليهود لن يرضوا بنصف فلسطين كما أوهمتنا الأمم المتحدة ولا بفلسطين كلها وهو ما بدا واضحا في حرب 1967 ، وأن مسلسل التوسع على حساب الأراضي الإسلامية مستمر بدعم قوي من العقيدة اليهودية التي تؤمن أن أرض إسرائيل تمتد من الفرات إلى النيل ، مما يجعل حلول التسوية السلمية ومؤتمرات السلام عبثا يتلهى به اليهود ويبعدون به قوى الأمة عن طريق التحرير .

يقول بن غوريون في البيان الذي أذاعه غداة قيام دولة إسرائيل : "ليست هذه نهاية كفاحنا ، بل إننا اليوم قد بدأنا وعلينا أن نمضي حتى نحقق قيام الدولة التي كافحنا في سبيلها من النيل إلى الفرات "[7] ، وخاطب طلاب الجامعة العبرية قائلا : " إن هذه الخريطة (خريطة فلسطين) ليست خريطة دولتنا ، بل إن لنا خريطة أخرى عليكم أنتم أيها الطلاب مسؤولية تصميمها في الغد ، خريطة الوطن الإسرائيلي الممتد من النيل إلى الفرات"[8].

و قد ذهب الإبراهيمي إلى أن أطماع اليهود المبنية على النصوص الدينية لن تقف عند حدود القدس لأنها لا تستطيع أن تستوعب الشعب اليهودي كله لذلك ضموا إليها مصر والعراق والجزيرة العربية . وقد فتح اغتصابهم لفلسطين شهيتهم على باقي المنطقة العربية وفي ذلك يقول : " إن أحلام صهيون قد عرفها الناس وعرفوا أنها تمتد إلى جزيرة العرب كلها ، وإلى جزيرة سيناء وقطعة من أرض مصر . ومن عاش آلاف السنين في أضغاث ولم تتحقق له واحدة منها في شبر ، حقيق بأن يعيش آلافا أخرى من السنين في حواشي الأضغاث بعد أن تحققت له في مئات الأميال "[9].

و الخطاب الإسلامي المعاصر يرفض هذا الطرح ويرد بشدة الحق الديني والتاريخي الذي يدعيه اليهود في فلسطين ، والذي تضمنته نصوص

---

[7] الكيلاني ، إسماعيل . من مفكرة فلسطين . ملة الأمة . ع20 . شعبان 1402هـ . يونيو 1982 م . ص 40

[8] المرجع نفسه . ص 40

[9] الإبراهيمي . عيون البصائر . ص 508

التوراة التي أثبت الباحثون أنها كتبت بعد عشرة قرون من وفاة موسى عليه السلام استنادا إلى الفروق الواسعة التي تبدو واضحة على اللغات والأساليب التي صيغت بها أسفارها ، وما تعكسه أحكامها وتشريعاتها من بيئات سياسية واجتماعية متباينة [10]، وهذه النصوص التي تعد اليهود بالأرض المقدسة وترسم لهم حدودها وتعلمهم أساليب التعامل مع سكانها طافحة بالوحشية والدموية والكره الدفين للبشرية جمعاء وهي لا تعدو أن تكون ــ في نظر بعض الباحثين ــ تعبيرا عن أحلام اليهود الدينية التي لم يحققوها على مر العصور في الواقع ، لذلك تضمنت جميع ما تموج به نفوسهم من فساد وانحراف واستعلاء وإحساس بالأفضلية لتعويض قرون الاضطهاد التي عاشوها في مختلف البلاد .

و يرى الإبراهيمي أن اغتصاب اليهود لفلسطين إنما يريدون أن يحققوا به المنى والأحلام ، وإرواء الظمأ التاريخي وإشباع الهوس الديني ، لأن كتابة الله للأرض التي وعدوها في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام :{ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين}[11] كانت بشرطها ولم تكن محاباة لهم ، فلما أخلوا بالشروط منعوا من الجزاء : " ولا يعد أخذ اليهود لها من كنعان في واحدة من هذه ، لا وإنما هي كتابة الله بشرطها ومعجزة موسى في حدودها"[12].

و يرد ــ في الوقت ذاته ــ الادعاء التاريخي حين يثبت أن فلسطين ــ يوم حازها المسلمون ــ لم تكن تحت أيدي اليهود ولا في حماية دولتهم ، وإنما انتزعوها من أيدي الرومان الذين طغوا على أهلها وتجبروا وجرعوهم كؤوس الذل والاستعباد :" قال التاريخ إن العرب لم ينتزعوا فلسطين من اليهود ، ولم يهدموا لهم فيها دولة ولا ثلوا لهم عرشا مرفوعا ، وإنما انتزعوها من الرومان فهم أحق بها من كل إنسان ... إن فلسطين أرض عربية لأنها قطعة من جزيرة العرب ، وموطن عريق لسلائل من العرب ، استقر فيها العرب أكثر مما استقر اليهود ، وتمكن

---

[10] وافي ، علي عبد الواحد . الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . د. ت . ص 16

[11] المائدة ، 21

[12] الإبراهيمي ، عيون البصائر . ص 506

فيها الإسلام أكثر مما تمكنت اليهودية ، وغلب عليها القران أكثر مما غلبت عليها التوراة ، وسادت فيها العربية أكثر مما سادت العبرية"[13].

و عليه فالخطاب الإسلامي يؤكد أنه ليس لليهود حق في فلسطين من الناحية الدينية لأن هذه الأرض أعطيت لبني إسرائيل عندما رفعوا راية التوحيد واستقاموا عليها تحت قيادة رسلهم وصالحيهم ، وعندما انحرفوا وبدلوا وقتلوا أنبياءهم وعاثوا في الأرض فسادا فقدوا تلك الشرعية ، وانتقلت الوراثة الحقيقية لراية التوحيد للمسلمين الذين عدهم القران الكريم الامتداد الحقيقي والوحيد لأمة التوحيد ودعوة الرسل. فالمسلمون ــ إذن ــ هم أحق الناس بهذا الميراث بعد أن انحرف الآخرون لأن رصيد الأنبياء هو رصيدهم ، وتاريخهم امتداد لتاريخ الرسائل السماوية ، والشرعية التي أعطاها الله للأنبياء وأتباعهم في حكم الأرض المقدسة هي دلالة شرعيتهم وحقهم في هذه الأرض[14] ، قال تعالى : { ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين}[15].

فمسألة استحقاق الأرض المقدسة غير مرتبطة بالجنس والنسل والقومية ، وإنما مرتبطة باتباع المنهج ، وهكذا فإن الله أخبر إبراهيم عليه السلام أن الإمامة والقيادة لا ينالها الظالمون من نسله وذريته لأن الأمر يتعلق بالاستقامة على منهج الله قال تعالى :{ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمون }[16].

ثالثا : كشف حقيقة التحالف اليهودي ــ الصليبي على فلسطين :

سجل الخطاب الإسلامي المعاصر حقيقة التحالف بين الحركة الصهيونية والدول الغربية ، وحاول سبر أغواره ،و ركز عليه تركيزا

---

[13] المرجع نفسه . ص 492 ، 493

[14] صالح ، د. محسن محمد . القضية الفلسطينية : خلفياتها وتطوراتها حتى سنة 2001 . ص 27

[15] ال عمران ، 67 ــ 68

[16] البقرة ، 132

خاصا باعتباره وجها من وجوه الصراع الحضاري القائم بين الأمة الإسلامية وأعدائها من النصارى واليهود ، وظل يلح عليه ويلفت النظر إليه على أنه حلف صليبي ــ يهودي ضد الإسلام يكتسي طابع العداء العقائدي أكثر من أي طابع آخر .

و إذا كان هذا التحالف قد برز بشكل فاضح أيام الانتداب البريطاني على أنه تعاون صهيوني إنجليزي عندما أصدرت السلطات الإنجليزية وعد بلفور عام 1917 م ، وعملت بجد على تطبيقه في أرض الواقع من خلال تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين وحمايتها، والإسهام في مصادرة الأراضي العربية وتمليكها لليهود ، وفتح معسكرات التدريب لهم وإمدادهم بالسلاح والدعم العسكري والإداري ، فإن السنين التي تلت هذه الأحداث قد كشفت شيئا فشيئا أن هذا التحالف لم يكن عقدا مصلحيا بين الصهيونية والاستعمار الإنجليزي ضد فلسطين فقط ، بل كان فعلا حلفا صليبيا ــ يهوديا واسع النطاق يستهدف المنطقة العربية والإسلامية بإبقائها ملغمة تتقاذفها الفتن والقلاقل ، والحيلولة دون أية محاولة للنهوض والتنمية والاستقرار والوحدة فيها .

و لئن غابت هذه الأبعاد عن المفكرين المسلمين في بداية الأزمة إلا أن ذلك لم يمنعهم من مهاجمة الاستعمار الإنجليزي والتنديد بدوره القذر في التمهيد لقيام الكيان اليهودي . يقول ابن باديس مبينا الآثار الكارثية لهذا الحلف على الأمة الإسلامية : " تزاوج الاستعمار الإنجليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الأمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيما لا يطاق ، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل "[17] و صور الإبراهيمي مظاهر هذا التحالف ناعيا على العرب حسن ظنهم بالإنجليز بعد أن لدغوهم من الجحر الواحد مرات عديدة وأروهم رأي العين أنهم لا يقيمون لهم وزنا : " قد علمتم أنه هو الذي وعد صهيون فقوى أمله ، ولولا وعده لكانت الصهيونية اليوم كما كانت بالأمس حلما من الأحلام ... وعلمتم أنه انتدب نفسه على فلسطين فكان الخصم والحكم في قضيتها ، وأنه ما انتدب إلا ليحقق وعده ، وأنه في ظل

---

[17] ابن باديس . " فلسطين الشهيدة " . الشهاب . ج6 . مج 14 . جمادى الثانية . 1357 هـ . أوت 1938 م .

انتدابه وبأسنة حرابه حقق صهيون مبادئ حلمه ، فانتزع الأرض منكم بقوة الإنجليز ، وقوانين الإنجليز ...و علمتم أن الإنجليز هم الذين سنوا الهجرة بعد الفتح ليكاثروكم بالصهيونيين على هذه الرقعة من أرضكم"[18].

و قد ظل الخطاب الإسلامي المعاصر يتابع هذه الحقيقة ويؤكد عليها مستفيدا في تدعيم وجهة نظره مما آلت إليه الأحداث ، وما تنشره وسائل الإعلام المختلفة من وثائق ومعاهدات تظهر بما لا يدع مجالا للشك أن النصارى ــ على الرغم من العداء الذي يكنونه لليهود على مر التاريخ ــ قد قبلوا التحالف معهم إذا كان في ذلك قضاء على الإسلام وأهله وضمان عدم قيام دولة جديدة تبعث الحيوية والنهضة في العالم الإسلامي .

ولعل في الوثيقة التي نشرتها مجلة (التايمز) اللندنية والتي أكدت أن نصها الكامل مازال محفوظا في سرية تامة لدى الحكومة البريطانية على الرغم من مرور أكثر من تسعين سنة عليه[19] ما يفند كل الشكوك التي تدور حول هذا الموضوع . إذ تحتوي على مقترحات تتبنى مشروع الدولة الحاجزة التي أبدى اليهود استعدادهم الكامل لتنفيذها لصالح الاستعمار الأوروبي في مقابل الحصول على الدعم اللازم لإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

و من خلفيات هذا المشروع أن المليونير اليهودي روتشيلد قد وجه خطابا إلى رئيس وزراء بريطانيا عقب هزيمة محمد علي جاء فيه : " إن هزيمة محمد علي وحد نفوذه في مصر ليسا كافيين لأن هناك قوة جذب بين العرب ، وهم يدركون أن عودة مجدهم القديم مرهون بإمكانيات اتصالهم واتحادهم . إننا لو نظرنا إلى خريطة هذه البقعة من الأرض فسوف نجد أن فلسطين هي الجسر الذي يوصل بين مصر وبين العرب في آسيا، وكانت فلسطين دائما بوابة على الشرق . والحل الوحيد هو زرع قوة مختلفة على هذا الجسر في هذه البوابة لتكون هذه القوة بمثابة حاجز يمنع الخطر العربي ويحول دونه . وإن الهجرة اليهودية إلى فلسطين تستطيع أن تقوم بهذا الدور . وليست تلك خدمة لليهود يعودون بها إلى أرض الميعاد مصداقا للعهد القديم فقط ، ولكنها أيضا خدمة للامبراطورية

---

[18] الإبراهيمي . عيون البصائر . ص 510

[19] إسحاق ، محمد . " دور الصهيونية في الاستراتيجية الاستعمارية " . رسالة الجهاد . س6 . ع66 . مايو 1988 م . ص 52

البريطانية ومخططاتها . فليس مما يخدم الإمبراطورية أن تتكرر تجربة محمد علي سواء بقيام دولة قوية في مصر أو بقيام الاتصال بين مصر والعرب الآخرين "[20].

و بناء على هذه المقترحات أكدت لجنة الخبراء التي اجتمعت في لندن خلال العشرية الأولى من القرن العشرين أن هناك خطرا مهددا :" يكمن في البحر المتوسط بالذات باعتباره همزة الوصل بين الشرق والغرب، ويعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية بصفة خاصة شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة وكل مقومات التجمع والترابط وذلك فضلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية "[21]. وحتى لا تستفيد المنطقة من مكتسبات الثورة الصناعية الأوروبية وانتشار التعليم الذي يضعها على خط النهضة الحقيقية فإن الدول الغربية مطالبة بأن تبقي الوطن العربي مجزأ ومتخلفا ، وأن تسعى سعيا حثيثا لإيجاد كيان بشري قوي وغريب شرقي البحر المتوسط ، تعتمد عليه في فصل الجناح الإسلامي الآسيوي عن جناحه الإفريقي ليمنع وحدته ويضمن استمرارية ضعفه وتفككه ، ويقف حائلا دون أي نمو حضاري قوي في المنطقة بما يثيره من الاضطرابات التي تستنزف طاقته وجهوده وتبقيه إلى أبعد مدى في فلك التبعية والضعف[22].

و هو الأمر الذي عزز الطرح الذي تبناه الخطاب الإسلامي المعاصر حينما أكد أن : " إسرائيل أقيمت في قلب العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار العسكري عنه لتمثل أداة استنزاف لقوته واقتصاده وطاقاته وحرياته وأمنه، تستنفذ قدرته على استعادة دوره التاريخي "[23]، وهي تمثل من جهة أخرى : " خطرا مباشرا ويوميا على الشعب الفلسطيني المسلم منذ أن قامت على أرضه وانطلقت منها للتوسع في

---

[20] إسحاق ، محمد . " دور الصهيونية في الاستراتيجية الاستعمارية " . رسالة الجهاد . س6 . ع66. ص 53

[21] المرجع نفسه. ص 53

[22] المرجع نفسه . ص 53

[23] حسنة ، عمر عبيد . تأملات في الواقع الإسلامي . المكتب الإسلامي . بيروت . ط1 . 1411 هـ . 1990 م . ص203

أرض إسلامية أخرى ، وهي تكرس بهذا كل واقع التجزئة القائم على أرض الوطن الإسلامي ، وتسعى لإذكاء الفروقات المذهبية والإثنية والإقليمية وفق نظريتها حول الشكل الفسيفسائي للمنطقة "[24].و أعلن فيه أن القضية الفلسطينية صورة حية للتحالف اليهودي ـ الصليبي الذي يستهدف العالم الإسلامي كله ، مما يستوجب النظر إليها من هذه الزاوية ، وعدم حصرها في نطاق جغرافي ضيق لا يتجاوز الحدود التي رسمها الاستعمار :"إن التآمر على قضيتنا في فلسطين كان دوليا ، شارك فيه الشرق والغرب ابتداء من الاعتراف بإسرائيل دوليا ، وانتهاء بضمان كيانها ومدها بالسلاح المتفوق من الغرب والعنصر البشري الاستيطاني المهاجر من الشرق ، إنه تحالف يهودي نصراني وثني ، لأن الكفر ملة واحدة "[25]

رابعا : التأكيد على إسلامية القضية :

يتضمن الخطاب الإسلامي المعاصر ميلا قويا إلى اعتبار القضية الفلسطينية قضية إسلامية بالدرجة الأولى، مما يستوجب معالجتها انطلاقا من الرؤية القرآنية بعيدا عن شعارات القومية والعلمانية والاشتراكية لأن الكيان اليهودي الذي نواجهه مسلح بالرؤية التوراتية التي بنى عليها احتلاله لفلسطين واستيطانه فيها . فالمعركة مع اليهود معركة عقيدة ولا يمكن للمسلمين أن ينتصروا فيها إلا إذا تسلحوا بسلاح العقيدة .

و يؤكد الخطاب الإسلامي المعاصر في مفرداته أنه لم يعد في الوسع تغييب البديل الإسلامي عن الساحة أطول من ذلك باعتباره حلا بديهيا ووحيدا للقضية ، ومنطلقا طبيعيا للتعامل مع عدو يعلن بوضوح عن هويته الدينية ، ويقوم كيانه عليها ، في الوقت الذي انزلق فيه المسلمون نحو الشعارات المستهلكة والتجارب الفاشلة التي أفقدتهم توازنهم وأدت إلى ضمور الشعور بالمسؤولية في أعماقهم نحو الأرض والمقدسات .

و قد عبر الشيخ محمد الغزالي عن سخطه وغيظه وهو يستمع إلى المحتفلين بيوم الأرض يلحون على عروبة فلسطين ويبنون آمالهم في تحريرها على عراقة وجود الجنس العربي فيها ويعتبرون أنفسهم أحفاد

---

[24] موسى ، د. بشير . " الإسلام وقضية فلسطين " . مجلة المنتقى . ع1 . س2 . مركز الدراسات والتوثيق الإسلامي . باريس . شتاء 1405 هـ . 1985 م . ص 1 ـ 10

[25] حسنة ، عمر عبيد . تأملات في الواقع الإسلامي. ص 202

الكنعانيين وورثتهم فقال :" إن دوران المعركة على هذا المحور هدف استعماري انزلق إليه العرب في محنتهم النفسية والعسكرية ، ولن ينالوا من ورائه خيرا . فبنو إسرائيل يديرون المعركة على أساس ديني بحت ، ويستقدمون أتباع التوراة من المشرق والمغرب قائلين : تعالوا إلى أرض الميعاد ، تعالوا إلى الأرض التي كتبها الله لأبيكم إبراهيم كما أكد العهد القديم "[26].

ثم يستطرد محذرا من مغبة التمادي في هذا السبيل مؤكدا على إسلامية القضية الفلسطينية : " إن قضية فلسطين خاصة يستحيل تجريدها من طابعها الديني ... إن العدوان اليهودي المدعوم بقوى الصليبية العالمية له غاية مرسومة معلومة هي إبادة أمة وإزالة دين ،هي الإجهاز على الأمة العربية التي حملت الإسلام أربعة عشر قرنا ... والذين يبعدون الإسلام عن معركة فلسطين يشاركون في تحقيق هذه الغاية لأن فلسطين من غير الدفع الإسلامي زائلة ، والعرب من بعدها زائلون ، والمسلمون بعد زوال العرب منتهون "[27].

من هنا جاءت اعتراضات المفكرين المسلمين على كل المحاولات التي جرت لصبغ القضية الفلسطينية بطابع آخر غير الطابع الإسلامي ، وأكدوا في خطابهم ومواقفهم أن كل المذاهب الوضعية التي يسعى المهتمون بالقضية لإلباسها لها ستبوء بالخذلان ، وستوصلهم إلى طريق مسدود ، وأخذوا على منظمة التحرير الفلسطينية استبعادها للإسلام كركيزة أساسية للمقاومة ، وتبنيها لمختلف التيارات الفكرية : " إن من أهم المعوقات التي أخرت الانتصار في فلسطين هي إبعاد الإسلام عن ساحة الصراع ، أي إبعاد القوة القادرة على تقديم أطروحة النفي الكامل للمشروع اليهودي ، ومن ثم ضيقت خلفية الساحة وضيعت الامتداد الإسلامي الواسع ، وعلاج هذا الوضع هو تكريس الوعي الإسلامي الصحيح للقضية الفلسطينية ، واعتبار قضية فلسطين قضية مركزية للأمة كلها ، ووضع خطة المواجهة الإسلامية الشاملة"[28]

---

[26] الغزالي ، محمد . هموم داعية . منشورات دار الكتب . الجزائر . 1987 م . ص 35

[27] المرجع نفسه . ص 40 ــ 41

[28] موسى ، د. بشير ." الإسلام وقضية فلسطين " . مجلة المنتقى . ع1 . س2 . مركز الدراسات والتوثيق الإسلامي . باريس . شتاء 1405 هـ . 1985 م . ص 16 .

و من الأدلة القوية التي يستند إليها الخطاب الإسلامي المعاصر في دعم وجهة نظره أن التاريخ يعلمنا عبر جميع مراحله أن الإسلام كان ولا يزال هو المحرك الوحيد للجماهير المسلمة في رفضها لكل صور وأشكال الاستعمار والقهر والاضطهاد .و هو الذي عبأ حركات التحرير في العالم الإسلامي ، وأمد المجاهدين برؤية سليمة ومنحهم القدرة على الصمود والمواجهة ، وكل البدائل الفكرية التي حاولت إقصاء الإسلام عن الساحة وإخراجه من المجتمع لم تفرز سوى مزيد من الارتكاس والإحباط والتمزق والضياع والفرقة والهزيمة، بحيث باتت هذه المعطيات حقيقة من الحقائق التاريخية التي تؤيدها أدلة الواقع ، وهذا ما يجعل الإيمان بأن الطريق إلى فلسطين لا بد أن يمر عبر الإسلام .

يقول عمر عبيد حسنة : " الخارجون على الإسلام هم الجسر الحقيقي الذي مكن اليهود من العبور إلى فلسطين ، وهم الذين حاولوا طيلة القرن الماضي إن لم نقل النصف الأخير منه طرح المشكلة الفلسطينية طرحا مغلوطا ، ووضعها في غير إطارها الصحيح الذي يشهد له التاريخ ، ويؤيده الواقع ، وتؤكده الأحداث اليومية ، وهم لا يزالون يصرون على السير في هذا الطريق المسدود رغم سقوط الطريق وسقوط أهل الطريق... لقد استهلكت خلال السنين الماضية كل الشعارات التي طرحت في المنطقة العربية لتحرير فلسطين ، وسقطت كل الحلول المطروحة ، بل تبين أنها كانت في مصلحة إسرائيل في نهاية المطاف ، لقد أصبحت جثة هامدة مهما حاول أصحابها أن ينفخوا فيها الروح أو يزعموا لها الحياة ، ولم يبق إلا الحل الإسلامي ، فهل نتقدم باتجاه هذا الحل بإخلاص نية وصدق عزيمة ؟"[29].

خامسا : رفض مشروعات التسوية السلمية :

لقد تميز الخطاب الإسلامي المعاصر بموقفه الثابت من مشروعات التسوية التي طرحت على الساحة لإنهاء الصراع العربي ـ اليهودي وتصفية القضية الفلسطينية ، حيث رفض جميع هذه المشاريع على أساس أن فلسطين قد اصطبغت منذ أربعة عشر قرنا بصبغة الإسلام ، وأصبحت بذلك جزء حميما من التاريخ الإسلامي ، وقد دافع عنها المسلمون ضد كل غزو وعدوان على يقين بأنهم جميعا ـ مهما نأت بهم الديار ـ مستخلفون

[29] حسنة ، عمر عبيد . تأملات في الواقع الإسلامي . ص 226 ـ 227

على هذه الأرض المباركة ، ولا يملكون حق التنازل عن أي شبر منها ، وأن التفريط في جزء من التراب الفلسطيني يعد ضربا من الكفر والمروق من الدين ، لأن القرآن الكريم لا يبيح للمسلم أن يعقد معاهدة يفرط بموجبها في أرض الإسلام ، ناهيك عن القدس وأرض فلسطين المباركة .

و القبول بمشروعات التسوية ــ في مفردات الخطاب الإسلامي ــ يعني الاعتراف بحق المعتدين الغاصبين في الاستيلاء على أرض إسلامية افتكوها بقوة الحديد والنار ، وذبحوا أهلها ، وشردوا من بقي منهم ، واستوطنوا البلاد ، وأصبحوا يشكلون تهديدا خطيرا على العالم الإسلامي كله . والقرآن يحرم مسالمة المعتدين ويدعو إلى مقاتلتهم واستعادة الحق الإسلامي منهم : { فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ولن يتركم أعمالكم}[30] . كما يحرم كل معاهدة تؤدي إلى إضعاف المسلمين وزرع الفرقة بينهم ، أو تؤدي إلى إتاحة الفرصة للعدو للاعتداء على فريق آخر من المسلمين .

و من أوائل الأصوات التي ارتفعت رافضة التفريط في شبر واحد من أرض فلسطين لصالح اليهود صوت عمر راسم الذي تنبه إلى حقيقة الخطر الصهيوني في بداياته الأولى ، ودعا إلى وقفه قبل أن يستفحل ، وقد قال عام 1914 م معلقا على مقالة صدرت بجريدة المنار تحدث فيها رشيد رضا عن نشاط جمعية يهودية أوروبية مشبوهة تسعى إلى تكوين دولة لليهود في البلاد المقدسة من مملكة العثمانيين[31] : " إن اتفاق زعماء العرب أبناء الفاتحين وأهل البلاد مع زعماء اليهود مستحيل ، لأنه اعتراف بزعامة اليهود ، ورضي بمشاركة هؤلاء الأجانب في بلاد اشتراها آباؤهم بدمائهم الطاهرة . فلا يحق لغير العرب وهم أبناء إبراهيم الأصفياء الأزكياء الموعودون بتلك البقعة الطاهرة أن يملك تلك الأرض ،

---

[30] محمد ، 35

[31] رضا ، محمد رشيد . " المسألة الشرقية والصهيونية" . المنار . مج 17 . ج 4 . 27 مارس 1914 م.

ولا لغير راية الإسلام أن تخفق عليها ما دام في عروق العرب دم ، وفي أجسام المسلمين روح "[32].

و يؤسس الإمام محمد الحسيني الشيرازي موقفه من اليهود في إسرائيل اعتمادا على الرؤية القرآنية التي تصورهم عصاة كفرة ، تمودوا عبر التاريخ على أنبيائهم وقتلوا عددا منهم ، وافتروا عليهم واتهموهم بارتكاب الفواحش ، وحرفوا كتاب الله ، وهم الآن مغتصبون لأرض فلسطين . لذلك كان الصلح والمصالحة معهم غير شرعية لأسباب عديدة يذكر منها : عداءهم الشديد للإسلام والمسلمين ، وانحراف عقائدهم ، وسعيهم الدؤوب لإفساد العالم ، واغتصابهم لأرض إسلامية بدون وجه حق ، لذلك كان إبرام الصلح معهم يعني التخلي عن جزء عزيز من أرض الإسلام ، الأمر الذي يرفضه الشرع رفضا باتا[33] .

أما الإمام حسن البنا فقد رفض جميع محاولات التفاوض والتقسيم التي بدأت تطرح منذ عام 1936 م، وكان من أهم أسباب هذا الرفض أن جميع هذه المحاولات التي اقترحت كحل للقضية تضمنت دعوة لليهود وعصاباتهم كطرف في القضية ، وهو يرى أنهم ــ في ميزان الشرع ــ نزلاء مغتصبون ، والإسلام يحرم إقرار هؤلاء على ظلمهم ، ويأمر بجهادهم ولو إلى قيام الساعة[34] .

و في هذا الإطار يندرج حركة موقف الإخوان المسلمين الذين يرون أن من الحقائق المسلمة أن فلسطين ملك للأجيال الإسلامية قديمها وحديثها ، وملك للأبناء والأحفاد ، وليس من المروءة أن يتنازل الآباء عن حق الأجداد الذي يجب أن ينتقل خالصا إلى الأحفاد ، وإذا حدث ذلك ــ لا قدر الله ــ فإن التاريخ سيروي للأجيال القادمة أن قوما غضب الله عليهم قد فرطوا في حقهم وأرضهم ووقعوا تواقيع آثمة تنازلوا بموجبها عن كرامة الأمة ومستقبلها وعذرهم في ذلك هو :" حبا بمستقبلكم أيها الأجيال

---

[32] الصنهاجي ، ابن المنصور . " المسألة الصهيونية " . جريدة ذو الفقار . ع 4 . 28 جوان 1914

[33] الشيرازي ، السيد محمد الحسيني . هل سيبقى الصلح بين العرب وإسرائيل ؟ . مؤسسة الوعي الإسلامي للتحقيق والترجمة والطباعة والنشر . بيروت . ط1. 1997 م . ص 6 ــ 7

[34]

تنازلنا عن الكثير رغبة في الإبقاء على القليل ، وتنازلنا عن دماء الألوف المؤلفة من شهدائنا كي تسلم لنا بقية باقية من حياة "[35]

سادسا : تبني خيار المواجهة العسكرية والتأكيد على أن زوال دولة إسرائيل حتمية قرآنية :

لقد استند الخطاب الإسلامي إلى المرجعية الدينية التي تؤكد أن الصراع بين الحق والباطل سيظل قائما إلى أن يأذن الله بفناء العالم ، وأن المواجهة الحاسمة بين المسلمين واليهود آتية لا محالة ، وليست هذه التفاعلات التي تجري على الساحة سوى إرهاصات للحادث الأعظم . وقد بشر الرسول صلى الله عليه وسلم المرابطين في سبيل الله الذين يردون العدوان عن أرض الإسلام بالأجر العظيم ، وعدهم جنود الله الذين لا يضيرهم تكالب الأعداء وقوتهم واتساع سلطانهم ، وأشار إلى أنهم سيظلون رغم الجراح والعذاب متمسكين بالحق الذي يدافعون عنه ، وأن موضعهم ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس: { عن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، ولا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك . قالوا : يا رسول الله وأين هم ؟ قال : ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس}[36] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{ لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله ، لا يضيرهم خذلان من خذلهم ، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة }[37].

و أكد الرسول عليه الصلاة والسلام أن نهاية هذه المرابطة ستكلل بالنصر المؤزر حينما يأذن الله بذلك ، وتصل المواجهة إلى ذروتها القصوى : { لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من

35

36 أخرجه أحمد في مسنده . ج 5 . ص 269

37

شجر اليهود }[38]. وقد استوحى بعض المفكرين المسلمين من هذا الحديث أن المواجهة ستكون في زمن يعلو فيه شأن اليهود وتقوى شوكتهم ويتعزز جانبهم بحيث يشكلون قوة طاغية تهدد العالم ، ويسترجع المسلمون وعيهم بذاتهم ويدركون بوضوح المهمة السامية التي كلفوا بها حينما نعتهم الله بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهو الأمر الذي دفع ببعضهم إلى اعتبار أن الفسادين اللذين تحدث عنهما القران الكريم في سورة الإسراء وأخبر أن بني إسرائيل هم الذين سيتولون القيام بهذا الإفساد لخصائص نفوسهم الميالة إلى ذلك لم يحدثا في الماضي كما ذهب إلى ذلك لفيف من المفسرين القدامى ، بل مضى الفساد الأول ونحن نعيش في هذا الزمن إرهاصات الفساد الثاني .

قال تعالى : { وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا }[39]

. وممن تبنى الرأي الذي أسلفنا ذكره الشيخ أسعد بيوض التميمي الذي يرى أن الفساد الأول قد وقع في زمن الإسلام الأول بعد نزول الآيات ، أما الفساد الثاني وفيه العلو فهو الذي نعيشه اليوم وينطبق على الوضع الإسرائيلي الراهن .

وهو يؤيد رأيه بما ورد من ايات في سورة المائدة تحذر المؤمنين من موالاة اليهود والنصارى والتي يقول فيها الله عز وجل :{ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين}[40] ويذهب إلى أن الموالاة بين اليهود والنصارى لم تحدث في الماضي إذ أن الطرفين كانا عدوين لدودين وتاريخهما المشترك يطفح بالدماء والاعتداءات والوحشية، وهذا هو الزمن الذي حدثت فيه الموالاة التي أمدت اليهود بالقوة وساندتهم

---

[38] رواه مسلم في صحيحه . كتاب الفتن . رقم 82 . 2922

[39] الإسراء ، 5 ـــ 7

[40] المائدة ، 51

لتوجيه مشاريعهم الاستئصالية ضد المسلمين ، والتحذير من موالاة الأعداء تعني الاعتصام بحبل الله والمرابطة في سبيله إلى أن يتحقق النصر الذي بشرت به الآية الكريمة : { ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون }[41] ، وهي الآية التي يرى التميمي أنها منبئة عن المجاهدين الذين سيقضون على دولة إسرائيل وفي ذلك يقول : " إن ربط آيات الإسراء المتعلقة باليهود وآيات المائدة المتعلقة باليهود والنصارى وموالاتهم بالأحاديث الصحيحة التي وردت عن قتال اليهود وقد رواها البخاري ومسلم وجدنا أن النصر حتمي ، وأن زوال دويلة اليهود حتم كذلك . أما الطريق إلى تحقيق هذه الحتمية القرآنية فليس غير الجهاد سبيلا "[42].

و تابعه في ذلك صلاح الخالدي الذي ركز بشكل خاص على الآيات الواردة في سورة الإسراء ، واستخرج منها كل الدلائل التي تؤكد أن هذا هو زمن الإفساد الثاني بما يتمتع به اليهود من قوة عسكرية واقتصادية وسياسية ، وقنوات تأييد دولية قوية مكينة تشد أزرهم عبر عنها القرآن الكريم بقوله :{ ثم رددنا لكم الكرة وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا }، ثم بين مآل هذه القوة الطاغية ومصيرها الأخير الذي وضحه في قوله تعالى :{ فإذا جاء وعد الاخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا} وهي إشارة واضحة لزوال دولة إسرائيل على أيدي المجاهدين الصادقين الذين صبروا وصابروا ورابطوا ووثقوا في عهد الله وميثاقه وحافظوا على فريضة الجهاد قائمة إلى أن تهيأت لهم السبل لتنفيذ وعد الله وتحرير الأرض المقدسة[43] .

و يرى أحمد نوفل أن العمل لفلسطين لا بد أن ينطلق من منطلق الإسلام إذ هو وحده الكفيل بتوحيد الفكر والجهد والسواعد التي تحمل البندقية ، لأن الإسلام يستنفر الأمة الإسلامية بأكملها . ويشترط قبل ذلك

---

[41] المائدة ، 56

[42] التميمي ، الشيخ أسعد بيوض . زوال إسرائيل حتمية قرآنية . منشورات أويم بريس المحدودة . لندن . ط2 . 1984 م . ص 23 . 128 . 135 . 150

[43] الخالدي ، د. صلاح . حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية . منشورات فلسطين المسلمة . لندن . ط2 . 1995 م . ص 172 ــ 187

أن يتم إحداث تغيير شعبي عريض يعمل على إيجاد صف إسلامي قوي أو دولة إسلامية تكون ظهيرا للمسلمين وتستقدم أفواج المجاهدين من كل بقاع الأرض. ويؤكد في النهاية أن آيات الإسراء قد حسمت نتيجة المعركة المقبلة مع اليهود لصالح المسلمين ، وأنها ستكون ربانية إسلامية بحتة ، جنودها عباد الله وهدفهم المسجد الأقصى[44] .

و يشكل هذا الرأي الذي يعتبر الجهاد خيارا لا بديل عنه قناعة عميقة في الخطاب الإسلامي المعاصر الذي يؤمن أن إسهاب القرآن في وصف بني إسرائيل وقص تاريخهم وتصوير نفسياتهم لم يأت عبثا ، وإنما جاء لحكمة عظيمة لعل أهمها تنبيه المسلمين إلى ضرورة معرفة عدوهم الذي يشكل الطرف النقيض لتوجههم ، والاستعداد التام ليوم المواجهة الكبرى . يقول فتحي يكن : " أما نحن ... فإننا نؤمن بالجهاد الفعلي طريقا لوقف الغطرسة اليهودية عند حدها ولتحرير فلسطين ــ كل فلسطين ــ من طاغوت إسرائيل ، لتقوم في أرض الإسراء والمعراج دولة الإسلام التي سيعم نورها وخيرها الأرض التي بارك الله حولها وعندئذ يفرح المؤمنون "[45] .

و منها أيضا أن طبيعة الرسالة الإسلامية الخاتمة تحتم على أتباعها أن يكونوا حراسا على قيم الحق والخير وليس هناك من يهدد هذه القيم اليوم في العالم كاليهود : " ولعل هذا العدوان المستمر (على الإسلام وأهله) من لوازم الرسالة الخاتمة ، وقدر حملتها الذين نيط بهم القضاء على الباطل وديمومة التصدي له ومواجهة جولاته الأخيرة بكل أحقادها وخبراتها التاريخية . لذلك كان الجهاد روح هذه الأمة ودرع حياتها . وكان القيام على الحق حتى يأتي أمر الله من أخص خصائصها ، وكان الجهاد بمدلوله العام الذي هو بذل الجهد في سبيل نصرة الحق بشتى

---

[44] نوفل ، د. أحمد . الطريق إلى فلسطين . عمان . الأردن . 1403 هـ . 1983 م . ص 68 ــ 71 ــ 76 ــ 81

[45] يكن ، فتحي . العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري . الزيتونة للإعلام والنشر .باتنة . 1989 م . ص 81

الوسائل المشروعة : فرض عين على كل مسلم ، لا يكون المسلم مسلما إلا به "[46].

سابعا : الخطاب الإسلامي نقد وتقييم

و من كل ما سبق نخلص إلى القول بأن الخطاب الإسلامي المعاصر قد استطاع أن يجعل منها قضية مركزية يتمحور حولها وأن يصنع لها إطارا نظريا يستمد شرعيته من النصوص المعصومة ، ونجح في أن يضعها في موضعها الصحيح وأن يلم بجوانبها المختلفة ، وأن ينطلق من هذه المعطيات كلها لتعبئة الجماهير المسلمة في كل مكان ، وترسيخ القضية بقداستها وأبعادها المصيرية في أذهان الأجيال المسلمة مع الإصرار على عدم التنازل عنها مهما كلفنا الصمود والثبات في المواقع من ثمن .

إن هذه المواقف الثابتة التي حرص الخطاب الإسلامي المعاصر على بثها باستمرار في ثناياه قد نجحت ـ إلى حد لا يستهان به ـ في التخفيف من وطأة الهزيمة التي أطبقت على أنفاس المسلمين ومن الإحساس المرير بالهزائم المتكررة ، ومن شعورهم بالصغار والإذلال أمام الغطرسة الصهيونية التي كسرت كل الحواجز وأفقدتهم الثقة في أنفسهم ، كما وفقت في زرع الأمل في الأجيال المسلمة التي نشأت في جو الهزيمة والسقوط الحضاري والتبعية الثقافية والاقتصادية والسياسية الثقيلة ، ومنعت شريحة واسعة منهم من قبول الواقع المر والاستسلام له بما طرحت أمامه من آفاق مستقبلية تعد بغد أفضل بشرط العمل الدائب في ظل الثبات على الموقف .

و على الرغم من هذه الجوانب الإيجابية إلا أن هناك بعض الملاحظات التي ينبغي الإشارة إليها والتي تشكل بعض مظاهر القصور والخلل في الخطاب الإسلامي المعاصر الذي عالج القضية الفلسطينية . فمما يؤخذ على هذا الخطاب أنه ظل لمدة طويلة حبيس الإطار النظري الذي يقوم على تقرير المبادئ ، والدعوة الحارة إلى الجهاد ، وإدانة

---

[46] حسنة ، عمر عبيد . تأملات في الواقع الإسلامي . المكتب الإسلامي . بيروت . ط1 . 1411 هـ . 1990 م . ص 224

الأنظمة العربية لعجزها وتخاذلها عن نصرة الشعب الفلسطيني ، بل وتآمرها عليه إرضاء للضغوط الغربية المؤيدة تأييدا تاما غير مشروط لسياسة إسرائيل في فلسطين ، وتوجيه اللوم المستمر لمنظمة التحرير الفلسطينية في عدم انطلاقها في مواجهتها المسلحة من الإسلام ، ولم يحاول المنظرون للموقف الإسلامي أن يضعوا استراتيجية واضحة للممارسة الجهادية الثورية ، ويبادروا بأنفسهم لتجسيد الجهاد الذي أسقطه الآخرون .

و يرى المنتقدون للخطاب الإسلامي أن المبررات التي يطرحها لتبرير عدم انخراط التيارات الإسلامية في حركة جهادية شعبية عامة تتولى تحرير فلسطين غير مستساغة ، ولا تصمد أمام الواقع الحي المتغير . ذلك أن الخطاب الإسلامي يذهب إلى إن حركة الجهاد الشعبية التي تنطلق من الإسلام لا بد لها من ظهير يحميها ويسندها ، وهذا الظهير لا يتحقق إلا إذا قامت دولة إسلامية تتبنى المرجعية الإسلامية وتشرف على تنظيم صفوف المجاهدين وتمدهم بما يحتاجونه من المؤونة والسلاح ، وبغير هذا الظهير فإن المجاهدين سيصطدمون حتما مع القوى الرسمية التي ستحول بينهم وبين الذهاب إلى فلسطين [47]، وسيتعرضون لقمع شديد ويتحول الصراع بين أبناء البلد الواحد بدل أن يتوجه نحو اليهود .

و حتى يتكون هذا الظهير تحتاج التيارات الإسلامية إلى وقت كاف لممارسة الدعوة بالحسنى وتغيير ما بالأنفس من الأمراض والانحرافات وتهيئتها لقبول المنهج الإسلامي والسير على مقتضاه ، وبذلك يظهر للوجود ــ بشكل تلقائي ــ تيار شعبي فكري وشعوري واسع يمكن أن يشكل مع الزمن قوة ضاغطة على الأنظمة لتبني الإسلام والجهاد استجابة للروح الشعبية الإسلامية المتصاعدة[48] .و في انتظار أن تتطهر

---

[47] صلاح الدين ، خالد . الاتجاه الإسلامي : الموقف العام من القضية الفلسطينية ، نقد وعرض .ضمن كتاب : الحركة الإسلامية : رؤية مستقبلية ، أوراق في النقد الذاتي . تحرير وتقديم : د. عبد الله النفيسي . مكتبة مدبولي . القاهرة . ط1 . 1410 هـ . 1989 م . ص 102

[48] صلاح الدين ، خالد . الاتجاه الإسلامي : الموقف العام من القضية الفلسطينية . ص 102

المجتمعات الإسلامية من أمراضها وتستعيد ذاتها فإن الجهاد غير ممكن في ظل الظروف الحالية .

و الذين يوجهون النقد لهذه الاستراتيجية التي يتبناها الخطاب الإسلامي بخصوص قضية الجهاد وتحرير فلسطين يؤكدون أن التيار الإسلامي قد شهد ــ خلال العقود السابقة ــ اتساعا مشهودا على المستوى الكمي والأفقي إلا أن ذلك كله لم يسهم في تغيير مجمل الأوضاع الاجتماعية والعلاقات الأساسية التي تحكم المجتمع ومؤسساته وتنظيماته . وإذا كان الخطاب الإسلامي يراهن على تغيير الداخل للاتجاه نحو الخارج مما يدعو إلى تأجيل الجهاد خوفا من الاصطدام بالقوى الرسمية ، فإن هذه القوى الرسمية نفسها هي التي تعمل على منع حدوث هذا التغيير الداخلي وتحول دون نضجه في إطار التحالف الذي يربط بعضها بالعدو الخارجي[49] ، وبذلك يصل هذا الطرح إلى عنق الزجاجة فلا يتغير الداخل ولا يعلن الجهاد .

و لعل ذلك ما دفع بعض المفكرين إلى الدعوة لتبني الخيارين معا والمراهنة على العلاقة العضوية التي تربطهما للسير نحو التغيير على الجبهتين الداخلية والخارجية : " فالذي تنطق به الحقائق الموضوعية أنه بقدر ما أن العودة الذاتية إلى الإسلام شرط لفاعلية التحرير ، فإن الجهاد التحريري شرط ــ في الوقت نفسه ــ للعودة الذاتية إلى الإسلام .أي أن العلاقة بينهما مزدوجة في الوقت نفسه ، وليست مرحلية كما تتضمن استراتيجية الاتجاه الإسلامي الرئيسي حتى الآن ، وذلك مقابل الترابط العضوي بين فساد الأوضاع العربية الداخلية وبين الوجود الإسرائيلي"[50].

و هذا هو الرأي الذي تبناه أسعد بيوض التميمي حينما ذهب إلى أنه لا مجال لتأجيل الجهاد ، وأكد أن الإعداد والتربية يتمان تحت راية الجهاد لا قبله ، لأن الاهتمام بالتربية واستبعاد الجهاد لوقت لاحق يعني أن شباب الأمة سيتفسخون روحيا وجسميا وستنهار روح المقاومة والتحدي في داخلهم ، بينما عن طريق الجهاد سوف يتدارك الله الأمة برحمته وستتخلص من أمراضها وأعدائها من كل طراز ولون[51] .

---

[49] المرجع نفسه ، ص 113 ، 114

[50] المرجع نفسه ، ص 115

[51] التميمي ، أسعد بيوض . زوال إسرائيل حتمية قرانية . ص 150

و بذلك يصبح الجهاد أسلوبا لتحقيق كلا الهدفين المترابطين : تغيير الأوضاع الداخلية وتحرير الأرض المقدسة ، وليس نتيجة منتظرة ريثما يتم التغيير الداخلي . ونتيجة لهذا الطرح برزت إلى الوجود عدة تيارات إسلامية في فلسطين ولبنان مثل حركة المقاومة الإسلامية (حماس) ومنظمة الجهاد وحزب الله والتي تبنت خيار المواجهة العسكرية المباشرة مع الكيان الصهيوني ، واستطاعت أن تحقق مكاسب معتبرة قياسا إلى الظروف المتردية التي يعيشها العالم العربي والإسلامي، جعلت اليهود يحسبون لها ألف حساب ، ومن أظهر نتائجها الانسحاب اليهودي من جنوب لبنان ، والاضطراب الكبير الذي يعيشه اليهود في ظل الانتفاضة التي خلطت الأوراق ، وأنعشت الآمال ، وجددت الأمل في المستقبل ، وبرهنت على أن الأمة ما زالت ــ رغم النكسات والهزائم والجراح والآلام ــ تختزن في أعماق ذاتها روحا قوية تنبض بالحياة.